الفصل الثاني

جذور الغلو في الدين وطبيعته
في حياة المسلمين المعاصرة

المبحث الأول

جذور الغلو في الدين
في حياة المسلمين المعاصـرة

المطلب الأول
الجذور التاريخية

إنّ ظاهرة الغلو قديمة قدم الرسالات السماوية ، إذ اختلفت استجابات المدعوّين لتلك الرسالات ، فكان منهم الغلاة . وما كان إرسال نوح عليه السلام إلا لوقوع قومه في الغلو حيث غلوا في مجموعة من الصالحين فأوصلوهم درجة الألوهية . ثم ظهر الغلو في بني إسرائيل وبلغوا فيه مبلغاً كبيراً ، ومن أجل ذلك جاءت الآيتان اللتان ورد فيهما النهي عن الغلو ، والخطاب فيهما موجه إلى بني إسرائيل[1].

وفي عصر النبي صلى الله عليه وسلم وقع الغلو وتعددت وقائعه التي اتخذت إحدى صورتين :

١ - بذرة الغلو العقدي ، ويتضح ذلك من حديث ذي الخويصرة[2] الذي اعترض على قسمة النبي صلى الله عليه وسلم للغنائم ، وفيه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن من ضئضىء هذا قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان »[3].

٢ - الغلو العملي ، ووقائعه التي حدثت في العهد النبوي كثيرة[4].

فأما الغلو العملي فهو صورة تتكرر في كل زمان على أيدي أفراد من الناس ،

---

(١) الآيتان هما في سورة النساء آية ١٧١ وفي سورة المائدة آية ٧٧

(٢) هو ذو الخويصرة التميمي قيل إن اسمه حرقوص بن زهير ، ذكره الطبري في الصحابة . وكان من خبره ما روي في الأحاديث التي بينت اعتراضه على قسمة الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر الطبري أنه شارك في فتوح العراق ثم صار مع الخوارج فقتل معهم ينظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٢ والشوكاني ، نيل الأوطار ج ٧ ص ١٨٥

(٣) سبق تخريجه في ص ٧١ .

(٤) ينظر ص ٧٦ - ٨٠ .

ولستُ معنياً هنا بدراسة جذوره التاريخية ، لأنها شأن فردي يمكن أن يحدث في أي بيئة .

وأما الغلو العقدي فهو حقيق بأن تدرس جذوره التاريخية لأنه ذو كيان ، وكان سبباً في سفك دماء وقيام حروب ، كما أنّ حوادثه مترابطة بشكل ما : إما ترابطاً تاريخياً بحيث تكونّ بعض صور الغلو ناشئةً عن بعض ، وإما ترابطاً فكرياً بحيث تتفق صور الحديث مع القديم دون أن يكون هناك تواصلاً تاريخياً وهذا الغلو العقدي بقيت بذوره التي رأينا صورتها في العهد النبوي على يد ذي الخويصرة متوارية وراء الباب حتى كسر ثم تتابعت الفتن وكان الباب هو عمر بن الخطاب [1] رضي الله عنه ، فعن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه : قال : كنا عند عمر فقال : أيُكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتن كما قال؟ قال : فقلت أنا .

قال : إنك لجريء ، وكيف قال ؟

قال : قلت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فقال عمر : ليس هذا أريد ، إنما أريد التي تموج كموج البحر .

قال : فقلت : ما لك ولها يا أمير المؤمنين ، إنّ بينك وبينها باباً مغلقاً .

قال : أفيكسر الباب أم يفتح ؟

قال : لا بل يكسر .

---

(١) هو الخليفة الراشد والإمام العادل عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ثاني الخلفاء الراشدين ، شجاع حازم ، يضرب بعدله المثل ، شهد الوقائع وهو أول من وضع التاريخ الهجري واتخذ بيت المال ، ودون الدواوين ، حدثت في عهده فتوحات كثيرة ففتح الشام والعراق والمدائن ومصر والجزيرة قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام ٢٣هـ ، ينظر الإصابة ج ٧ ص ٧٤ والأعلام ج ٥ ص ٤٦ .

قال : ذلك احرى ألاّ يغلق أبداً .

قال : فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟

قال : نعم كما يعلم أنّ دون غد الليلة ، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط .

قال الرواي : فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب ، فقلنا لمسروق [1] فسأله فقال : عمر [2].

وكان كسر الباب بقتل عمر رضي الله عنه ، بداية الفتن ، حيث بدأ المغرضون يهيئون النفوس لها ، فأوغروا الصدور على الخليفة الراشد عثمان بن عفان [3] رضي الله عنه حتى امتدت إليه الأيدي الآثمة فقتلته ، فكان قتله هو الفتيل الذي أشعل نار الفتنة الهوجاء إذ وقع الاختلاف بين الصحابة رضوان الله عليهم :

- ففريق يرى وجوب المبادرة إلى القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه .

- وفريق يرى تأخير ذلك حتى تقوى شوكة الدولة وتتمكن من متابعة قتلة عثمان رضي الله عنه [4]، فجاءت وقعة الجمل لتمثل الصراع الذي أثاره هذا

---

(١) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ، تابعي ثقة من أهل اليمن قدم المدينة في أيام أبي بكر رضي الله عنه وسكن الكوفة كان فقيها عالماً بالفتيا توفي عام ٦٣هـ ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٦٣ ، الأعلام ج ٧ ص ٢١٥ .

(٢) رواه البخاري (١/ ١٤٠) كتاب مواقيت الصلاة ، باب الصلاة كفارة ، وفي (٢/ ١٤١) كتاب الصدقة تكفر الخطيئة ، وفي (٣/ ٣٦) كتاب الصوم ، باب الصوم كفارة وفي (٩/ ٦٨) كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، ومسلم (٤/ ٢٢١٨) كتاب الفتن ، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر ، والترمذي (٢٢٥٨) كتاب الفتن : باب رقم ٧١ .

(٣) هو الخليفة الراشد عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية قرشي ثالث الخلفاء الراشدين فتحت في أيامه أرمينية والقوقاز وقبرص وجمع الناس على مصحف واحد قتل رضي الله عنه بعد أن حوصر أربعين يوماً وهو يقرأ القرآن صبيحة عيد الأضحى عام ٣٥هـ ، ينظر الإصابة ج ٦ ص ٣٩١ والأعلام ج ٤ ص ٢١٠

(٤) ينظر د/ أحمد محمد جلي دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص ٢٩ - ٣٠ .

الاختلاف وكان أيضاً لمثيري الفتنة فيه دور كبير إذ بعد أن اتفق الصحابة على الصلح أثيرت الفتنة ووقعت المعركة ، وليس فريق من الفريقين بدأها ، وأنما بدأها المغرضون . [1] ثم بعد وقعة الجمل حدثت وقعة صفين بين علي رضي الله عنه وأشياعه ومعاوية رضي الله عنه [2] وأشياعه ، فكانت المرحلة الأكثر تأثيراً في انتشار الفتن ونشوء الفرق ، إذ تعد حادثة التحكيم التي أعقبت الوقعة المنتج لأكبر فرقتين غاليتين في تاريخ المسلمين (الخوارج والروافض)[3] .

وكلتا الفرقتين غاليتان ولكنه غلو متقابل في جوانب متفق في جوانب أذكر منها الآتي :

١ - في جانب الولاء والبراء . غلت الخوارج في البراءة من الصحابة رضي الله عنهم ومنهم علي بن أبي طالب .

وغلت الروافض في الولاء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته من بعده .

---

(١) ينظر أحمد راتب عرموش ، الفتنة ووقعة الجمل ، برواية سيف بن عمر الضبي ص ١٤٤ - ١٧٩ . وينظر أحمد محمد جلي ، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب ، القرشي الأموي ، صحابي جليل ، ولد بمكة وأسلم يوم فتحها ، وكان كاتباً للوحي تولى الأردن في عهد عمر ، وجمع له عثمان ديار الشام كلها فلما مات عزله علي ، ثارت بينه وبين علي الحروب وكلاهما مجتهد ، وبويع بالخلافة ومات في دمشق عام ٦٠هـ ، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١١٩ . الأعلام ج ٧ ص ٢٦٢ .

(٣) ينظر شيخ الإسلام ، الفتاوي ج ١٣ ص ٣٢ ، ٢٠٨ .

وهنا يلاحظ أن الخوارج كانت لهم بداية واضحة - في شكل كيان - وهي حادثة التحكيم ، ولكن الرافضة في المقابل ليس لهم بداية تاريخية واضحة إذ اختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كبيراً ، * وايا ما كان الأمر فإنه بعد ظهور الخوارج اتضح المعسكران وبان الاتجاهان

* ينظر أحمد جلي ، دراسة عن الفرق ص ٨٨ - ١٠١ وعرفان عبدالحميد ، دراسات في الفرق ص ٢٥ .

٢- وهم متفقون في التكفير فكلهم يُكَفّر ، ولكن اختلافهم هو في محل التكفير وموضوعه [١]. ثم تتابع ظهور الفرق في تاريخ المسلمين فخرجت المرجئة والقدرية، والمعتزلة . . وغيرهم .

ولكن الأمر الذي يهم الباحث في هذا الموضوع هو هل الغلو المعاصر وليد الغلو القديم ؟

إنّ الذي دفع إلى هذا السؤال : أنّ آراء الغلاة المعاصرين متفقة إلى حد كبير مع آراء الغلو القديم وخصوصاً الخوارج والرافضة بصورة ما ، وهذا أمر قد قرره معظم الباحثين في هذا الموضوع[٢].

ولزيادة الأمر توضيحاً أعرض مجموعة من آراء الغلو المعاصر ، التي قال بها الخوارج بشكل أساسي أو الرافضة منسوبة إلى هؤلاء وأولئك :

١ - تكفير العصاة أصحاب الكبائر [٣].

٢ - الانفصال الكامل عن المجتمع [٤].

٣- تكفير المقيم غير المهاجر [٥].

---

(١) ينظر مجمل آراء الخوارج عند الشهرستاني في الملل والنحل ج ١ ص ١١٤ - ١٣٨ ومجمل آراء الرافضة عند الشهرستاني في الملل والنحل ج ١ ص ١٤٦ - ١٩٠ .

(٢) ينظر على سبيل المثال : أحمد محمد جلي دراسة عن الفرق ص ٧٩ - ٨٢ . وأحمد كمال أبو المجد ، حوار لا مواجهة ص ٦٧ ، سالم البهنساوي ، الحكم وقضية تكفير المسلم ص ٧٧

(٣) ينظر رأي الخوارج عند الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ص ١١٥ . ورأي المعاصرين ص ٢٦٥ - ٢٨٨ من هذا البحث

(٤) ينظر رأي الأزارقة من الخوارج عند محمد رضا الدجيلي ، فرقة الأزارقة ص ٨٠ ، ورأي المعاصرين ص ٤٧٦ - ٥٠١ من هذا البحث .

(٥) ينظر رأي الخوارج عند الشهرستاني ، الملل والنحل ج ١ ، ص ١٢١ ، ورأي المعاصرين ص ٣٠٦ - ٣١٠ من هذا البحث .

٤- القول إنّ ديار المسلمين دار كفر تستباح فيها الدماء[١].

٥- ما يسمى : (المفاصلة الشعورية)[٢].

وإذا اتضح هـذا التشابـه فهل معنـاه أنّ المعاصرين استفـادوا من الخوارج والشيعة؟

لقد اختلفت انظار الكتاب في هذا :

- فمنهم من ينـزع إلى القـول بأن الغـلاة اليـوم استفـادوا من الخوارج ومن فكرهم. يقول أحمد كمال أبو المجد[٣]: «نستطيع أن نقرر أن فكر الخوارج كان ولا يـزال أحـد الينـابيع التي يُستَمـدُّ منهـا كثيرٌ من آراء هـؤلاء المتطـرفين الجدد من الشباب»[٤].

وإلى هذا يميـل البهنساوي[٥] إذ يقـول : « إن أصـول هـذا الفكـر كـانت عن الخوارج»[٦] ويقـرر هـذا أحـد المعاصرين بكتـاب أسماه (جـذور الفتنـة في الفـرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات)[٧]

---

(١) ينظر رأي فرقة الأزارقة من الخوارج عند البغدادي في الفرق بين الفرق ص ٨٤ ، ورأي المعاصرين ص ٣٣٠ - ٣٤٦ من هذا البحث .

(٢) والمفاصلة الشعورية عند الرافضة هي التقيَّة ، وموسى بن جارالله ، الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ١١٦ . وينظر رأي المعاصرين ص ٤٩٥ - ٤٩٦ من هذا البحث.

(٣) كاتب مصري معاصر مهتم بدارسة الغلو ، عمل وزيراً للأعلام ، وهو الآن أستاذ ورئيس قسم القانون بجامعة القاهرة له مؤلفات عدة منها (حوار لا مواجهة)، ينظر غلاف بحثه التطرف الديني وأبعاده .

(٤) حوار لا مواجهة ص ٦٧ وهنا ملاحظة مهمة : هي أن الرابط الأكبر عند كمال أبو المجد بين فكر الخوارج وبين فكر الغلاة المعاصرين هي الحاكمية ويرى التسويه بين شعار لا حكم إلا الله وشعار (الحاكمية) مع ما بينهما من اختلاف وقد بيّنت هذا الرأي وناقشته ص ١٠٨ - ١١١ من هذا البحث .

(٥) سالم البهنساوي، كاتب مصري معاصر ، دخل السجن في عهد جمال عبدالناصر ، وشهد نشوء الغلو ، وكانت له محاورات مع أهله انتجت عدة مؤلفات منها الحكم وقضية تكفير المسلم وهو يعمل الآن مستشاراً بالكويت

(٦) الحكم وقضية تكفير المسلم ص ٧٧ .

(٧) المؤلف هو اللواء حسن صادق ، والسادات هو الرئيس المصري السابق محمد أنور السادات ولد عام ١٩١٨ م كان أحد الضباط المسمين بالأحرار الذين تولوا الحكم في مصر ، قتل عام ١٩٨١م ، ينظر موسى صبري ، السادات الحقيقة والأسطوره .

- وينزع بعض الأساتذة إلى القول بعدم استقاء المعاصرين من أفكار الخوارج والشيعة وإنما هو « لون غريب من التوافق في التفكير أدّى إلى النتائج عينها »[1].

مع أنه لا ينفي أن يكون بعض الغلاة « قد درس هذه الفرق وتأثر بمعتقداتها، وبما توصلت إليه من أفكار وبما استشهدت به من حجج »[2].

- والرأي الذي يتضح لي من خلال البحث في موضوع جذور الغلو وارتباطه بالفرق وخصوصاً الخوارج أبينه فيما يلي :

أولاً : أنّ الغلو في مراحله الأولى لم يتصل بفكر الخوارج ولا الروافض ولا الفرق الأخرى ، بل هو مبتوت الصلة بهذه الأفكار يدل على ذلك الحقائق التالية :

أ- أنّ الظرف الزماني والمكاني الذي نشأت فيه هذه الآراء لم يكن من السهولة فيه الاتصال بالكتب التي تتحدث عن فرق أهل الضلال. يقول أحد المتهمين بالغلو عندما ناقشه أحد الأساتذة في آرائهم وبين جذورها وأنها عند الخوارج وأمثالهم : «مستحيل ، هذه الأحكام وليدة الزنزانات والفقه البعيد عن أي كتاب، إذ لم يكن مع الجميع كتاب واحد حتى المصاحف كانت تصادر منّا ، وما توصل إليه الشباب فهو اجتهاد يقوم على ما يحفظون من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم »[3].

ب- أن الغلو حدث بعد مناقشات لبعض المسائل المستجدة فهو وليد ظرف وحدث ، ولم يكن عند أصحابه الأوائل مبادىء التقوا عليها من الأساس .

---

(١) نعمان السامرائي ، التكفير ، جذوره ، أسبابه مبرراته ص ٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢

ج- أن غالب الأفراد الذين ابتدأوا الغلو - إن لم يكونوا كلهم - على جهل وغير متخصصين في العلوم الشرعية ، إذ لم يسبق لهم اطلاع على هذه الكتب ، ولذلك عندما بين لهم بعض من ناقشهم أن أراءهم موجودة في الملل والنحل للشهرستاني[1] ونحوه من كتب الفرق قال بعضهم : بأنَّه لم يسمع بهذه الكتب ، وقال آخرون : إنهم سمعوا بها ولم يروها[2] .

د- أنّ ممن وقع في الغلو قوم رجعوا عن آرائهم لما رأوا أصلها عند الخوارج مما يدل على ظنهم أنهم سابقون إلى هذه الأفكار[3] .

ثانياً : أنّ أهل الغلو في المراحل المتأخرة ، وخاصةً المتصدرين منهم للقيادة أصبح عندهم علم بآراء الخوارج ، وربما استفادوا منها بصورة ما ، ويمكن أن يستأنس بما يلي :

أ-أنّ المناقشين لمنظري الغلاة بينوا لهم سبق الخوارج وغيرهم من الفرق إلى مثل هذه الآراء مما دفعهم إلى الاطلاع عليها[4] .

ب- أن قادة الغلاة كانوا يمنعون أتباعهم من قراءة كتب التاريخ ، وليس ثمت تفسيرٌ ظاهر لهذا إلا الخوف من معرفة تاريخ الخوارج وآرائهم المبثوثة في تلك الكتب[5] .

---

(١) هو محمد بن عبدالكريم بن أحمد أبو الفتح ، الشهرستاني ولد بشهرستان عام ٤٧٩هـ ، كان عالماً بمذاهب الفلاسفة وأديان الأمم ، عاش في بغداد ، وتوفي بشهرستان عام ٥٤٨هـ من كتبه الملل والنحل ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ٢٠ ص ٢٨٦ ، والأعلام ج ٦ ص ٢١٥ .

(٢) ينظر نعمان السامرائي ، التكفير جذوره وأسبابه ص ١٢ .

(٣) ينظر البهنساوي ، الحكم وقضية تكفير المسلم ص ١٧٩ .

(٤) ينظر السامرائي ، التكفير جذوره وأسبابه ص ١٢ . والبهنساوي ، الحكم وقضية تكفير المسلم ص ١٧٩ .

(٥) ينظر محمد سرور بن نايف زين العابدين ، الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو ص ٢٦٠ .

ج- أنّ تطور فكرهم وقوة استدلالاتهم في المراحل المتأخرة دالٌ على استنادهم إلى آراء سابقة لآرائهم .

د- أنّ بعض الآراء التي طرحها الغلاة : مثل غلوهم في تكفير مرتكب الكبيرة تكاد أدلتها تكون صورة لأدلة الخوارج من قبل .

وكذلك غلوهم في ذم المقلدين يكاد يكون صورة مطابقة لما كتبه الشوكاني[1] وابن حزم [2] في ذم التقليد مع اختلاف رأي الغلاة ورأي هذين الأمامين في هذه المسألة دون أن ينسبوا الآراء إليهما[3] .

وبهذا يتبين أنّ أثر الفرق القديمة على الغلاة المعاصرين جاء تالياً ولاحقاً فقد انحصر في إثراء تيارات الغلو وتأييد حججها لا في إيجادها ، إذ أنّ وجودها كان أثراً لعوامل أخرى . وليس في هذا تبرئة لساحة الغلاة ، أو تسويغاً لما وقعوا فيه ولكنه عرض لجذور أفكارهم تاريخياً بما يساعد على تصور هذه القضية وفهمها ومن ثم علاجها العلاج الصحيح الرشيد .

وإذا تبين هذا فإن سرّ التشابه بين آراء الخوارج وآراء المعاصرين يتضح في الجوانب الآتية :

١- تشابه المنهج الفكري للفريقين :

إنّ المنهج الفكري الذي استعمله الفريقان للوصول إلى الحقائق متشابه بدرجة كبيرة وهذا ما يجعل الآراء في كثير من الأحيان تتشابه بل تتماثل ، وسيأتي

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ولد بخولان، ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها له ١١٤ مؤلفاً منها نيل الأوطار وارشاد الفحول توفي عام ١٢٥٠هـ، ينظر الأعلام ج ٦ ص ٢٩٨ .

(٢) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، أبو محمد عالم الأندلس ولد بقرطبة ، كانت له ولأبيه وزارة تخلى عنها زهداً فيها، كان له آراء انتقد من أجلها ، وكان قوي الحجة سليطاً على مخالفيه له مؤلفات أشهرها المحلى ، توفي عام ٤٥٦هـ ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ١٨٤ ، والأعلام ج ٤ ص ٢٥٤ .

(٣) ينظر المصدر نفسه ص ٤٨ - ٥٠ .

بيان هذا[1].

٢- تشابه المناخ الفكري للفريقين :

إنّ الظروف الفكرية التي عاشها الخوارج والظروف الفكرية التي عاشها المعاصرون من أهل الغلو متشابهة من بعض الجوانب وخصوصاً في الجانب الفكري فكلا الفريقين يتسم بسمة واضحة هي الجهل «يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم »[2] كما أن التطور الفكري للفريقين متقارب حيث بدأ الغلو بالتكفير ثم تطور الى آراء غالية أخرى ، إذ يبدو أن الغلاة المعاصرين لم يلتقوا من الأساس على مبادىء عامة واضحة ، بل كان مبدأ غلوهم تكفير الحاكم ، ثم تطورت صور الغلو من خلال الممارسات العملية .

وكذلك الخوارج من قبل إذ لم يلتقوا على مبادىء معينة « بل رفعوا في البداية شعارات التفوا حولها ، كقولهم (لا حكم إلا لله) وتكفيرهم لمقاتليهم واستباحة قتلهم وقتالهم ، ومن خلال ممارساتهم تكونت للخوارج آراء عامة حول المشكلات التي أثاروها أو كانوا طرفاً في إثارتها كمشكلة الإمامة ومشكلة مرتكب الكبيرة والحكم عليه كفراً وإيماناً»[3].

---

(١) ص ١٠٢ .

(٢) جزء من حديث سبق تخريجه ص ٧١ .

(٣) د. أحمد محمد جلي ، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص ٤٧ .

المطلب الثاني
الجذور الفكرية

إنّ الآراء والأفكار لا تكون في غالب الأحوال مبتوتة الصلات، مقطوعة الجذور، بل بينها اتصال كبير وترابط بينّ، ويمكن أن تصنف الجذور الفكرية للآراء إلى صنفين :

١- معاقد الآراء ومجامعها، أي الآراء الجامعة التي تولدت منها معظم الآراء.

٢- الخلل في البنية الفكرية ويتمثل في :

أ- الجهل بمعنى انعدام العلم او قصوره.

ب- اختلال المنهج.

وسأطبق هذا على الغلو في حياة المسلمين المعاصرة بما يكون موضحاً لحقيقة هذا الغلو وطبيعته.

أولاً : الحاكمية وصلتها بمظاهر الغلو :

إنّ الخضوع لله عز وجل، والتسليم لحكمه من لوازم الإسلام ومقتضيات شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً »[١] ولقد جاء تقرير هذه العقيدة بأساليب متعددة في القرآن الكريم منها :

١- أسلوب الحصر حيث جاء حصر الحكم وأنه لله عز وجل وحده «إن الحكم إلا لله، أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم »[٢].

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٦.

(٢) سورة يوسف آية ٤٠

٢- أسلوب الإنكار ، إذ أنكر الله عز وجل على من ابتغى غير حكمه «أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون »[١] قال الحافظ ابن كثير : « ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم »[٢] .

٣- نفي الإيمان عمن لم يحكّم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء هذا النفي مؤكداً بتكرار أداة النفي وبالقسم ، قال الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً»[٣] .

قال شيخ الإسلام : « ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله لا بين المسلمين ولا بين الكفار . . . إلا بحكم الله تعالى ورسوله »[٤] .

وهذا المعنى متقرر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوال أهل العلم[٥]، وعاشت الأمة الاسلامية ، وهو حاضرٌ في حسها تحياه واقعاً عملياً قروناً طويلة ، كان فيها الحكم لله عز وجل ، حتى بدأ الغزوان الفكري والاستعماري ، فدخلت القوانين الأوربية دولة الخلافة العثمانية ،

---

(١) سورة المائدة آية ٥٠

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) سورة النساء آية ٦٥

(٤) الفتاوى ج ٣٥ ص ٤٠٨ .

(٥) ينظر شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب كتاب التوحيد ، بشرحيه قرة عيون الموحدين للشيخ ، عبدالرحمن بن حسن ص ١٩٢ ، وفتح المجيد ص ٣٢٠ - ٣٣٥ ، والشيخ محمد بن ابراهيم ، تحكيم القوانين ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه .

عندما ضعفت ، وكثرت عللها وأمراضها ، فزيَّن لها أعداؤها أنّ صلاحها وطريق نهوضها هو بالأخذ بالقوانين حتى صدر عام ١٨٤٠م أول قانون مخالف للإسلام في بلد مسلم ، مستمداً أحكامه من مصادر أجنبية ، وهو قانون العقوبات العثماني ثم توالى الأخذ بالقوانين في دولة الخلافة حتى رفع عنها حكم الإسلام عام ١٣٤٨هـ[١] وأما بعد عهود الاستعمار الذي رزحت تحته معظم البلاد الإسلامية فقد ورثت عنه صنائعُه الأحكام الوضعية ، فكانت القوانين الفرنسية والبريطانية والسويسرية هي عماد الحكم والتشريع . كما أن تحكيم الشرع غاب - في الغالب - على صعيد الأفراد مع أنفسهم ، وفي علاقاتهم مع الآخرين ، حيث ظهرت مخالفة شرع الله بالتهاون بأركان الدين وباظهار المنكرات ، فتنبه لهذا الأمر طائفة من العلماء والدعاة فأيقظوا الحس الإسلامي ودعوا إلى تحكيم شرع الله فنشأ عن ذلك مصطلح جديد هو (الحاكمية) والحاكمية كما يقول الأستاذ المودودي [٢] رحمه الله : «تطلق على السلطة العليا ، والسلطة المطلقة على حسب ما يصطلح عليه اليوم في علم السياسة ، فلا معنى لكون فرد من الأفراد - أو مجموعة من الأفراد أو هيئة مؤلفة منهم - حاكماً إلا أنّ حكمه هو القانون ، وله من الصلاحيات التامة ، والسلطات الكلية غير المحدودة لينفذ حكمه في أفراد الدولة وهم مضطرون إلى طاعته طوعاً أو كرهاً »[٣] .

ويقرر أبو الأعلى المودودي في كتابه المصطلحات الأربعة أن من مقتضيات

---

(١) ينظر ، عمر الأشقر ، الشريعة الإلهية ص ٦٤ - ٦٧ .

(٢) هو الأستاذ ابو الأعلى المودودي من الدعاة المعاصرين ولد في مدينة أورنك آباد عام ١٩٠٣هـ ، في أسرة فضل وعلم ، بنى نفسه بنفسه فتعلم واشتغل بالصحافة ، وأسس عام ١٣٦١هـ الجماعة الإسلامية وكان له دور كبير في تأسيس دولة باكستان توفي رحمه الله عام ١٣٩٩هـ ، ينظر فنحي يكن : الموسوعة الحركية ج١ ص ١٣-١٨ .

(٣) تدوين الدستور ، من مجموعة نظرية الإسلام وهديه ص ٢٥١ .

الألوهية أن يكـون الحكم لله فيقول : « الذي لا سلطـة له لا يمكن أن يكون إلهاً ، ولا ينبغي أن يُتّخَذَ إلهاً ، وهو وحده الذي ينبغي أن يُتّخَذَ إلهاً »[1] .

ولسيد قطب أيضا في هذا الموضوع كتابات كثيرة بل هو الذي وسع ونشر هذا المصطلح وأذاعه وبينه في مواضع كثيرة من كتبـه إذ يقول : « إن الحاكمية لله وحق تعبيد الناس ، وتشريع الشرائع لهم، هي أولى خصائص الألـوهية التي لا يدّعيها لنفسـه مؤمن بـالله ولا يُقره عليهـا مـؤمن بالله كـذلك ، وإنّ الذي يـدعي حق الحاكميـة ، وحق تعبيـد النـاس لما يشرعـه لهم من عنـد نفسـه إنما يـدعي حق الألوهية . . . »[2].

وهنا مسألة مهمة وهي أن نشوء هذا المصطلح وكونه مصطلحاً جديداً كان نتاج الترجمة لبعض المصطلحات الغربية ، لا يعنـي أنه نشاز في الإسلام ، لأن الأصل موجود ، وهو جـزء من توحيد الألوهية ، والعلماء الأقـدمون تكلموا في الحاكمية وأفاضوا ، فالناشيء والحادث هو المصطلح لا المسألة نفسها ، وإنّ احياءَه والتنظير له بهذه الطـريقة هـو نتاج أزمـة عاشتها البـلاد الإسلاميـة ، لما غابت شريعـة الله عنها ، فصيغت المسألـة بهذا الأسلوب لإحيائها في أذهـان المسلمين ، وتقريبها إلى أفهامهم ، ليعيشوها واقعاً عملياً كما عاشوها من قبل .

ومسألـة الحاكمية هـذه هي الجذر الفكـري الرئيس للغلـو في العصر الحديث ، حيث كـانت الشكايـة الكبرى للتيارات الإسلاميـة ولمن وقع في الغلو منهـا ، هي

---

(١) المصطلحات الأربعة ص ٢٩ .

(٢) مقومات التصور ص ١٧٧ ، وينظر معالم في الطريق ص ١١٨ .

الحكم بغير ما أنـزل الله ، مع ما اقترن بـذلك من فهم الحاكمية فهماً خاطئـاً، وقد تنبَّه لهذا بعض البـاحثين في موضـوع الغلو حيث عنون أحـدهم لكتابـه بـ (الحكم وقضية تكفير المسلم) وعنون الآخر لكتابه بـ (الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو) وقد بينَّ أحدهما وهو المستشار سالم البهنساوي - الـذي يعد شاهدَ عيان على تطور فكر الغلو في بعض البلاد الاسلامية - أن المناقشات الأولى التي وقعت في السجون وكانت من بذور الغلو ، تدور حـول موضوع الحاكمية إذ يجيب -على سبيل المثال - أحد السجنـاء عن سبب عدم ولائهم لحكامهم : بأنهَّم اختلفـوا مع الحاكم لأنه أصبح نداً لله وأخضع الناس لعبوديته من دون الله[1].

وعند تتبع مظـاهر الغلو العقـدية والعملية نجـد غالبها يـرجع إلى مسألة الحكم بغير ما أنزل الله ، وسأضرب لذلك عدة أمثلة :

١- تكفير المقيم غير المهـاجر . يـرجع هذا التكفير إلى عـدة مسوغـات منها أن الدار دار كفر ، وأن المجتمعات جاهليـة ، وكل ذلك يعود إلى كونها محكومة بغير ما أنزل الله .

٢- الخروج على الحكـام ، إذ أن المسوغ الـرئيس لهذا الخروج هـو تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله .

٣- الغلو في مفهوم التقليـد وفي ذم التقليـد . إذ مرجع ذلك إلى مفهوم الغلاة للتقليد ، وأنـه طاعـــة مطلقـة وهـــذه الطاعـة المطلقة لا تكـون إلا لله ، ولذلك يُكفِّرون المقلـد لأنه حكّم غير الله ، واتبع غير رسول اللـه صلى الله عليه وسلم .

ومعظم مظـاهر الغلـو كـذلك يأخذ بعضهـا بحُجَـزِ بعضٍ ، وتُكَوِّنُ حلقـات متصلة نهايتها مسألة الحاكمية .

وإذا تقرر بأنّ الجذر الـرئيس للغلو هو الحاكميـة من جهة وقـوع الحكم بغير ما أنزل الله ، ومن جهة الفهم الخاطىء للحاكمية فيجب التنبه إلى حقائق مهمة :

---

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم ص ٢٣ .

الحقيقة الأولى :

إن القول : إنّ الحاكميـة لله ليس المراد منـه أن يمارس صفوة من النـاس الحكم على أنهم ظل اللـه ، أو أنهم مكتسبـون لحقـوق الملـك الإلهيـة بل هي واجب على المؤمنين المُسلَمين بحاكمية الله وسلطانـه وعلوالشرع الإلهي الذي جاءهم من عند اللـه بواسطـة أنبيائه ورسلـه « وعد اللـه الذين آمنـوا منكم وعملوا الصـالحات ، ليستخلفنهم في الأرض »[1][2]

ومتى ما قيل إن الحاكمية معنـاها ممارسة طائفة من النـاس التسلط بدعوى أنهم ظل الله في الأرض فهذا غلو ، والداعون إلى الحاكمية لم يُعْلَم أنهم قالوا هذا .

الحقيقة الثانية :

إن القول بأنّ مسألـة الحاكمية هي الجذر الفكـري الرئيس للغلـو ليس معناه أنّ القـول بالحاكميـة غلو أو أنها خطأ كما قـرر ذلك بعض الكتـاب في عرضـه لما سماه (الأدوات الفكـريـة) للجماعـات الغـالية إذ يقـول : «منهـا فكـرة الحاكميـة للـه وحده . . . ومـا رتبوا عليها من نـزع سلطة التشريع عن الجماعـة . . ومغالاتهم في ذلك مغالاة سقيمة تنبع من جهل لا حدود له بمصـالح العباد ومقاصد الشريعة ، والفكرة قال بها العلامة المودودي وتابعـه المرحوم سيد قطب . . وجرت بها ألسنة آلاف من الشباب وأقلامهم وهي كلمـة حق أفضت إلى ضرر عظيم ، حرفت عن موضعها وسُخّرت لغير ما قيلت له »[3] .

وليست الـدعوة للحـاكميـة دخيلـة كما يرى ذلك د/ محمـد عمارة [4] بقولـه : «لاشعار الحاكميـة في نشأته الأولى بذي صلـة حقيقية بفكر الإسـلام السياسي . .

---

(١) سورة النور آية ٥٥

(٢) ينظر أبو الأعلى المودودي ، تدوين الدستور الإسلامي ، ص ٢٥٩ .

(٣) أحمد كمال أبو المجد ، حوار لا مواجهة ص ٥٧ .

(٤) كاتب مصري معاصر متفرغ للتأليف ، ذو نزعة عقلانية عصرية ، يحمل شهادة الدكتوراه وله مؤلفات كثيرة تزيد عن الستين كتاباً منها الإسلام وفلسفة الحكم . تيارات الفكر الإسلامي ، الأعمال الكاملة للإمام عبده .

ولا هو في صورته المودودية بالمعبر عن واقع الفكر الإسلامي الحديث أو ضرورات النهضة الإسلامية في إطار أمتنا العربية ، إنَّه شعار دخيل على تراثنا القديم واجتهادنا الحديث، تخلى عنه الذين ابتدعوه قديماً وجوهر فكر المودودي عنه مخالف لما فهمه منه أنصاره وأعداؤه على السواء فهو لا يعدو أن يكون شبهة من الشبهات»[1].

بل الحاكمية أمر متقرر بنصوص غير منحصرة في الكتاب والسنة ، ومارس النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون الحكم بشرع الله واقعاً عملياً ، ولكن الغلو واقع في آثارها ، ويمكن تصوير أثر القول بالحاكمية فيما يلي :

الحكم بغير ما أنزل الله . أنتج إدانة هذا الحكم والدعوة إلى الحكم بما أنزل الله ، ثم عَدمُ الاستجابة لهذه الدعوة أنتجت رد فعل يدين الحاكم بغير ما أنزل الله ويكفرّه ثم جاءت تبعاً لتكفير الحاكم مجالات الغلو الأخرى .

الحقيقة الثالثة :

إنّ موضع خطأ القائلين بغلو الداعين للحاكمية هو التسوية بين شعار الخوارج (لا حكم إلا لله) وبين المناداة بحاكمية الله . وهذا هو الذي نزع إليه بعض الكتاب في هذا الموضوع إذ يقول أحدهم : « من الملحوظ أن قطب قد تأثر في إيراده لهذا المفهوم بصيحة الخوارج عشية تأسيس الدولة الأموية [2](لا حاكمية إلا لله) »[3].

بل يؤكد بعضهم أن شعار الحاكمية هو نفسه شعار الخوارج (لا حكم إلا لله)[4].

---

(١) العلمانية ونهضتنا الحديثه ص ٩٥ .

(٢) هذا خطأ تاريخي إذ المعروف أن مناداة الخوارج بهذا كانت بعد وقعة صفين وبعد قصة التحكيم المشهورة ، ينظر ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٧٦ . كما أن النداء كان (لا حكم إلا لله) وليس (لا حاكمية إلا لله) .

(٣) محمد حافظ دياب ، سيد قطب : الخطاب والأيدلوجيا ص ١٢٩ .

(٤) ينظر أحمد كمال أبو المجد حوار لا مواجهة ص ٦٧ ، ومحمد سعيد العشماوي ، الإسلام السياسي ص٢٨ .

ولكي يتبين الفرق بين الأمر الذي نقمه الخوارج على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ، وملابسات رفع شعار (لا حكم إلا لله) ومعناه عندهم أبين ما يلي :

إن الخوارج لم ينقموا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه حكم بغير ما أنزل الله - حقيقيةً - ، بل نقموا عليه أنه حكّم الحكمين وهذا بزعمهم حكم بغير ما أنزل الله فقالوا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لمّا ناظرهم : « انسلخت من قميص ألبسكه الله واسم سمّاك به الله ثم انطلقت فحكّمت في دين الله ولا حكم إلا لله»[1].

وهذا غلو ظاهر لأنهم يريدون سلب البشر إمكانية تطبيق حكم الله عز وجل ولذلك رد عليهم علي بي أبي طالب رضي الله عنه فقال : «كلمة حق أريد بها باطل»[2].

أي أن القول إنّ الحكم لله حق وهو في القرآن « إن الحكم إلا لله»[3] ولكن أصحابها أرادوا منع تحكيم الرجال المطبقين لحكم الله عز وجل ، وهذا باطل ، قال الحافظ ابن حجر : « وكان أول كلمة خرجوا بها قولهم لا حكم إلا لله ، انتزعوها من القرآن وحملوها على غير محملها»[4] .

ويمكن إيضاح خطئهم بذكر مجموعة من النصوص التي فيها رد عليهم وهي كما يلي :

١ - قول الله عز وجل : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما »[5] وبهذه الآية رَدّ علي بن أبي طالب على الخوارج فقال في مجمع من أصحابه : «أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا

---

(١) رواه أحمد ج ١ / ٨٦ قال ابن كثير (تفرد به أحمد واسناده صحيح واختاره الضياء) البدايه والنهاية ج ٧ ص ٢٨ .

(٢) رواه مسلم (٢/ ٧٤٩) كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج .

(٣) سورة يوسف آية ٤٠

(٤) فتح الباري ج ٦ ص ٦١٩ .

(٥) سورة النساء آية ٣٥

بيني وبينهم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل :

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما)[1].

فأمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم دماً وحرمةً من امرأة ورجل»[2].

٢- قول الله تعالى لدواد عليه السلام : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»[3]. ففي هذه الآية أوكل الله عز وجل مهمة تطبيق الحكم إلى داود عليه السلام .

٣- ما رواه شريح بن هانيء [4] عن أبيه[5] قال : لما وفد أبي على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنّ الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْم فلم تكنى أبا الحكم ؟ » فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني ، فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين بحكمي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحسن هذا، فمالك من الولد ؟ » قال لي شريح ومسلم وعبدالله قال فمن أكبرهم قال : قلت : شريح ، قال : « فأنت أبو شريح »[6] وأقره صلى

---

(١) سورة النساء آية ٣٥

(٢) جزء من الحديث السابق تخريجه ص ١٠٩ والذي فيه (انسلخت من قميص . . . الخ)

(٣) سورة (ص) آية ٢٦

(٤) شريح بن هانيء بن يزيد الحارثي، راجز ، شجاع من مقدمي أصحاب علي رضي الله عنه ، قتل غازياً بسجستان عام ٧٨هـ ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٠٧ ، والأعلام ج ٣ ص ١٦٢ .

(٥) هو هانيء بن يزيد المذحجي ، صحابي كان يكنى أبا الحكم وكناه النبي صلى الله عليه وسلم باكبر أولاده شريح، ينظر الإصابة ج ١٠ ص ٢٣٢ .

(٦) رواه ابو داود رقم (٤٩٥٥) الأدب باب تغيير الاسم القبيح ، والنسائي (٨ / ٢٢٦) في أدب القضاة باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم ، وإسناده صحيح ، انظر ، الارناؤوط ، والشاويش ، حاشية شرح السنة للبغوي ج ١٢ ص ٤٣٤ .

الله عليه وسلم على حكمه بين الناس وأنكر بأسلوب نبوي أديب رفيع تكنيه بأبي الحكم لأن الحكم هو الحاكم الذي لا يرد حكمه وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى[1].

٤- أن النبي صلى الله عليه وسلم حكّم سعد بن معاذ[2] في بني قريظة كما هو مشهور في السيرة[3].

٥- أن الناس لا بد لهم ممن يحكم بينهم ولذلك رُوي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رد على الخوارج فقال: «كلمة عدل أريد بها جور، إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة بر أو فاجر»[4].

وبهذا يتبين وجه الافتراق بين شعار الحاكمية المطروح اليوم وبين شعار لا حكم إلا لله الذي طرحه الخوارج، فالداعون إلى الحاكمية لا يقولون بسلب الناس إمكانية تطبيق الحكم بل يقولون بالسيادة المطلقة لحكم الله التي هي من لوازم الإسلام.

---

(١) ينظر البغوي، شرح السنة ج ١٢ ص ٢٤٣

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن أمرىء القيس أبو عمرو الأنصاري الأوسي البدري، أسلم على يد مصعب بن عمير وكان سيداً في قومه توفي يوم الخندق، رمي بسهم، فعاش شهراً ثم انتفض جرحه فمات سنة ٥ للهجرة، ينظر سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٧٩، وتهذيب التهذيب ج ٣ ص ٤٨١، والأعلام ج ٣ ص ٨٨.

(٣) قصة تحكيم سعد رواها البخاري (٨/ ٧٢) كتاب الاستئذان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى سيدكم.

(٤) ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١، وينظر الشهرستاني، الملل والنحل ج ١ ص ١١٧، ولم أجد الأثر في الكتب المعتمدة وانما أوردته لاستدلال بعض العلماء به، ثم لصحة معناه.

ثانياً : الخلل في البنية الفكرية :

إنّ الخلل في البنية الفكريـة للغلاة كان جذراً رئيسـاً من جذور الغلو ، وذلك أن هذا الخلل طـريق لاختلال النتـائج والمعلومـات التي يتوصل إليها مـن تتسم بنيته الفكرية بهذه العلة .

ونظراً لأهمية المنهج كان لعلماء الإسلام دور كبير في ترسيخ علم أصول الفقه ، الذي هو بمثابة المنهج الذي يسير عليه مستنبط الأحكام من أدلتها وكان يؤكد على **جانبين مهمين :**

١ - أصول التشريع .

٢ - طرق الاستنباط ومناهجه .

ومعظم الانحـرافـات التي وقعـت في تـاريخ المسلمين سـواء في العقيـدة أم في الشريعة كـانت نتاج الخلـل في أحد هذين الجانبين وسـأذكر بعض الأمثلـة المتعلقة بأصول التشريع من معاقد الانحراف وأصوله :

١ - الجهل بأصول التشريع : الكتاب ، السنة ، الإجماع ، القياس . . والجهل يشمل الجهل العام بهذه الأصول أو الجهل بمفرداتها الحاكمة في القضية الفرد .

٢ - الإعـراض عن الاستقـاء من هــذه الأصـول مع العلم بها ، والاعتماد على العقل مثلاً .

٣- مخالفـة سبيل المؤمنين بـرفض أحـد هـذه المصادر كما هـو حـال من سمـوا أنفسهم بالقرآنيين الذيــن لا يرون فــي غيــر القرآن حجــة . أو الذين ينكرون حجيـــة السنـة ، أو خبر الآحــاد في العقـائد ، على اختـلاف في درجـات تلك المخالفة .

وعند النظـر في الغلو في العصر الحديث نجد أنّ هنـاك خللاً ، في البنية الفكـرية عنـد الغـلاة ، وقـد تمكنت عن طـريـق قـراءة كتبهم ونقـد آرائهم التي أوردتها في الفصلين الثالث والرابع من استجلاء جوانب ذلك الخلل ، بما أبيّنه فيما يلي :

١ - الجهل

وأبرز جوانب الجهل التي أراها مؤثرة ما يلي هي :

أ- الجهل بالكتاب .

ب- الجهل بالسنة .

ج- الجهل بمقاصد الشريعة .

د- الجهل بمآخذ الأدلة وأدوات الاستنباط

هـ- الجهل بأقوال العلماء وآثارهم .

و- الجهل باللغة العربية وأساليبها .

ز- الجهل بالتاريخ وبالسنن الكونية .

ح- الجهل بالواقع وظروفه وملابساته .

ط- الجهل بمراتب الناس وبمراتب الأعمال .

٢ - الخلل في المنهج

وأبرز جوانب الخلل في المنهج ما يلي هي :

أ- المنهج الحرفي في فهم النصوص .

ب- انعدام النظرة الشمولية .

ج- التأويل .

د- التلقي المباشر من النص .

هـ- اتباع المتشابه .

و- عدم الجمع بين الأدلة .

ز- انعدام الموضوعية (اتباع الهوى) .

ح- الاجتهاد من غير أهلية وعدم الأخذ من المصادر المعتبرة شرعاً .

المطلب الثالث
الجـــذور النفسيـــة

تختلف أنظار الباحثين في موضوع جذور الغلو النفسية ويتشعب هذا الموضوع، غير أن السؤال الأهم في فهم هـذه الجذور هو : هل الغلو نابع من عـوج في نفسية الغالي ، أو هو ناتج عن البيئة التي يعيش فيها؟

والإجابة عليه اتخذت منحيين إجملهما فيما يلي :

١ - يرى بعض العلماء أن الغالي ذو نفسية غير سوية وأن الغلو متأصل فيه تأصل الآفات النفسية الأخرى[١] .

ويؤيد بعض الباحثين هذا الرأي ، بل ويذهب إلى أبعد منه فيقول إنّ «دراسات وبحـوث علم النفس والطب النفسي دلـت على أن الشخصيـة المتطـرفـة شخصيـة مريضة ، وأن هناك خصائص عديدة مشتركة بين المتطرفين وبين مرضى العقل»[٢] . وهناك عـدد ضخم من البحـوث التي تناولت الاتجاهـات التعصبية في علم النفس في ارتبـاطهـا بسمات الشخصيـة ، وهذه البحـوث على الـرغم ممـا وجـه إليهـا من انتقادات تدعم الفـرض القائل بأن هناك بناء أساسياً في الشخصيـة يساعد على نمو الاتجاهات التعصبية[٣][٤] .

---

(١) ينظر محمد الغزالي ، حذار من التدين المغشوش ص ٤٢ .

(٢) سمير أحمد ، محددات التطرف الديني في مصر ، مجلة المستقبل ص ١١٢

(٣) ينظر معتز عبدالله ، الاتجاهات التعصبية ، ص ٢٦ .

(٤) يدرس علماء النفس جذور الغلو النفسية في بحوثهم ودراساتهم المتعلقة بالاتجاهات التعصبية ، وتحظى الاتجاهات التعصبية الدينية بـاهتمام واضح في علم النفس الاجتماعي . وإن كان مفهومهم للتعصب الديني إنما ينصب على تعصب مجمـوعة دينية ضـد مجموعـة أو مجموعـات دينية أخـرى ، ينظر (معتـز عبدالله ، الاتجاهات التعصبية ص١٨ ، ٤٨ - ٥٢ .

وهذا الرأي ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين ، وزاده توضيحاً - من وجهة نظره- بتحديد ملامح روح المتعصب ، التي يمكن تطبيقها على (الأصوليين المسلمين) وأُورد هذه الملامح مجملة فيما يلي :

١ - العزلة .

٢ - الاكتمال قبل الأوان .

٣ - الدونية - الاستعلاء .

٤ - الحركية - العدوانية .

٥ - الفاشية .

٦ - عدم التسامح .

٧ - الارتيابية - الإسقاط .

٨ - نظرة تآمرية .

٩ - المثالية - الإحساس بالواجب .

١٠ - القسوة - الجرأة .

١١ - الطاعة - الالتزام . [١]

وهذه الملامح التي أوردها مأخوذة من مقياس الفاشية الشهير في علم النفس ، حيث قام مجموعة من أساتذة علم النفس من خلال اللجنة اليهودية الأمريكية بمحاولة فهم أسباب الاتجاهات المعادية للسامية، وطاعة الألمان المطلقة لهتلر [٢] ، وينظر هؤلاء الباحثون إلى التعصب أنه اضطراب في الشخصية يماثل تماماً مختلف المخاوف المرضية

---

(١) ينظر هاربر دكميجان ، الأصولية في العالم العربي ، ص ٥٨ - ٦٣ .

(٢) هو أدولف هتلر ، زعيم الحزب النازي ، ولد في ميونخ عام ١٨٨٩م ، وأنشأ مع مجموعة من زملائه حزب العمال الألماني الاشتراكي انتخب رئيساً للبلاد وأشاع فيها الإرهاب وكان ذا نظرة عنصرية، قاد العالم إلى الحرب العالمية الثانية ، ينظر الموسوعة العربية الميسره ص ١٨٩١ .

النفسية الأخرى[1].

٢- وترى جمهرة الباحثين أنّ الغلو هو انعكاس لأوضاع يعيش فيها الإنسان. يقول أحد الأساتذة المتخصصين في الدراسات النفسية: «إذا وجد الإنسان واقعاً لا يقبله فإنه يلجأ لا شعورياً إلى رد فعل معاكس لهذا الواقع، وكلما كان الدافع قوياً كلما كان رد الفعل قوياً، بل وقد يؤدي إلى التطرف والعنف»[2].

ويقول د/ فؤاد زكريا:[3] «ومجمل القول أن ما يسمى بالإرهابي في عصرنا الحاضر هو في كثير من الحالات شخص لا يحمل تكويناً نفسياً يوجهه إلى الإرهاب، وإنما هو شخص يعتنق قضية ما، تؤثر على سلوكه وعلى اختياراته إلى حد قد يتعارض أحياناً مع تكوينه النفسي»[4]. وإلى هذا الرأي يميل بعض الباحثين الغربيين فيقول: «إن سلاح التكفير، أصبح واقعاً تحت التأثير الشديد للضغط الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي تعرض له بعض الجماعات من خلال المجتمع المصري»[5].

والذي يتبين للباحث من خلال دراسة ما كتب حول جذور الغلو النفسيه

---

(١) ينظر معتز عبدالله، الاتجاهات التعصبية ص ١٨، ١٣٠ - ١٣١

(٢) د. محمد شعلان، استاذ ورئيس قسم الأمراض العصبية، جامعة القاهرة، لقاء بجريدة الأخبار ٧/ ١/ ١٩٨٩م.

(٣) هو الدكتور فؤاد زكريا، من أقطاب العلمانية المشهورين مهتم بنقد الصحوة الإسلامية المعاصرة من كتبه الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة يعمل الآن أستاذاً في جامعة الكويت ومستشاراً لسلسلة عالم المعرفة التي تصدر في الكويت.

(٤) مقدمة سيكلوجيا الإرهاب وجرائم العنف ص ١٠.

(٥) ينظر، جيلز كيبل، النبي والفرعون ص ٦٦ وهذا الرأي هو رأي كثير من الباحثين وسيأتي مزيد بيان له ص ١٢٥-١٢٨، وشكري هو شكري أحمد مصطفى ولد عام ١٣٦٢هـ باسيوط واعتقل عام ١٣٨٥هـ بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين وأفرج عنه عام ١٣٩١هـ وكوّن في السجن جماعة كان لها انتشار كبير بعد خروجه أسماها جماعة المسلمين واشتهرت بجماعة التكفير والهجرة وأعدم عام ١٣٩٨هـ، ينظر محمد سرور بن نايف زين العابدين، الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو ص ١٠، ٣٠٤ - ٣٠٦.

يتلخص في النقاط الآتية :

أولاً - أن وجود خلل في التركيبة النفسية للغالي أمرٌ لا ينكر في الجملة ولكن لا بد من ملاحظة ما يلي :

١- أن وجود الخلل في التركيبة النفسيه شأن فردي . فكون فرد من الغلاة ذو نفسية غير سوية لا يعني اطراد هذه القاعدة في كل الغلاة ، ولا أن الغلو نشأ في الجملة بسبب ذلك العوج .

٢- أن كثيراً من الاختلال النفسي عائد إلى الضغوط التي يتعرض لها الإنسان، والإنسان لا يولد معوج النفس بل تتشكل نفسيته بحسب التربية والظروف التي يتعرض لها .

٣-أنه قد توجد قابلية نفسية عند بعض الغلاة حيث استجابوا للضغوط فنتجت ردة الفعل (الغلو) وخصوصاً عند فئة الشباب ، إذ أنهم أكثر فئات المجتمع تعرضاً للوقوع في الغلو ، لما يتوفر لهذه الفئة من الإمكانات والطاقات مع ضعف التجربة وقلة العلم .

ثانياً- أن البحوث التي تهتم بدراسة الغلو لا تنظر إليه من الوجهة الفردية ، بل تعنى به على أنه مشكلة إجتماعية، والمشكلات الإجتماعية تنشأ في الغالب عن ضغوط اجتماعية .

ثالثاً- أن هذه الضغوط الإجتماعية تؤثر في غالب الأحوال على شرائح كبيرة من المجتمعات فيتسع ضررها ، بينما تُعدْ العلل النفسية قاصرة الضرر .

رابعاً- أن الغلو يمثل رد فعل أو انعكاساً طبيعياً لسلسلة المشكلات السياسية والثقافية والإجتماعية ، إذ أصبح الغلاة واقعين تحت التأثير الشديد للضغوط في هذه المجالات فهناك إذاً جانبان للقضية :

أ- ظواهر وأنماط فكرية وعملية تثير أعضاء مجتمع معين(الفعل) .

ب- التعبير عن عدم الرضا بهذه الظواهر (رد الفعل) .

وكان لاختلال المنهج العلمي والعملي للغلاة الأثر الأكبر في تأثرهم ونزوعهم

إلى الغلو، وقد سبق توضيح ذلك في الجذور الفكرية بما أغنى عن التكرار(١).

خامساً- أن تلك الظواهر المُشكِّلة لنفسية الغلاة والمؤثرة فيها تختلف: فمنها ما يكون أقوى تأثيراً، ومنها ما يكون أكثر مباشرة لآحاد أحداث الغلو فيكون هو المفجّر للفعل، ويكون التوتر المتراكم الناجم عن هذه الظواهر هو السبب في إيجاد تعبير عن السخط وعدم الارتياح(٢).

وأما بيان هذه الظواهر والضغوط فقد اختلفت اتجاهات الباحثين إلى وجهتين:

١- اختزال الضغوط والظواهر في أمر واحد، إذ يرى - على سبيل المثال - بعض الباحثين أن الجذور الفكرية والحركية للغلو تتمثل في هزيمة عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م فيقول «إن الجذور الفكرية والحركية لانتشار موجة التطرف الديني الإسلامي تعود إلى أزمة المجتمع المصري غداة هزيمة يونيو ١٩٦٧م»(٣) وينفي أن يكون جذر الغلو هو التعذيب الذي وقع لبعض الجماعات الإسلامية كما يراه بعض الباحثين الآخرين(٤).

٢- دراسة جذور الغلو بشكل عام ونسبة الغلو إلى جذور متعددة، وهذا ما جرى عليه معظم الباحثين(٥).

وهذا النهج هو الأصوب إذ من المتقرر عند العلماء قديماً وحديثاً أنه لا يوجد سبب واحد مستقل بالتأثير بحيث يكون مسئولاً عن أي شكل من أشكال السلوك البشري(٦).

---

(١) ص ١٠٢ - ١١٤.

(٢) ينظر معتز عبدالله، الاتجاهات التعصبية ص ٧٨.

(٣) رجاء العربي، التطرف الديني وأبعاده ص ٢.

(٤) مثل البهنساوي، الحكم وقضية تكفير المسلم ص ٢٢ - ٣٠.

(٥) ينظر على سبيل المثال، القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٠٨ - ١٢٥، وكمال أبو المجد، التطرف الديني وأبعاده ص ٦ - ٨.

(٦) ينظر معتز عبدالله، الاتجاهات التعصبية ص ٩٨.

ولذلك سأعرض لأهم المؤثرات والضغوط الاجتماعية التي تؤثر في نفسيات الغلاة أو المتهمين بالغلو مستخدماً في استخراجها الأساليب التالية :

١ - دراسة بعض كتابات من وقع في الغلو دراسة مستقلةً لتحديد أوجه شكايتهم، ومكامن الضغوط المؤثرة على نفسياتهم .

٢ - الاستئناس بآراء من كتب في هذا الموضوع ، ممن رأى أن بعض الظواهر مؤثرة في الغلاة .

مع العلم أن ما سأعرضه هنا ما هو إلا عرض مجمل مختصر لأهم هذه المؤثرات وهذا بيانها :

أولاً : الأوضاع المحلية :

١ - غياب شرع الله عن الحكم في معظم ديار المسلمين حيث اقصيت الشريعة الإسلامية واستجلبت القوانين الوضعية[١] .

٢ - غربة الإسلام وتعاليمه في كثير من ديار المسلمين، حيث أن الإسلام -بشموله- غائب عن الساحة في العديد من بلاد المسلمين، وفي جوانب حياتهم المختلفة مما يشعر المسلم بالغربة، وهذه الغربة تعمل عملها في نفسية المسلم في هذا العصر وخصوصاً الشباب[٢] .

٣- الموقف من الاتجاه الإسلامي ويتمثل فيما يلي :

أ- استخدام القوة والعنف حيث لقي التيار الإسلامي في بعض البلاد الإسلامية ضغوطاً شديدة من سجن وتعذيب وقتل وتشريد، وكانت من جذور الغلو حيث نشأت فكرة محاربة الأنظمة ورد الاعتداء بالقوة[٣] .

ب- الاتهام والهزء، إذ عولجت القضايا المنسوبة الى التيار الإسلامي -في

---

(١) ينظر حيثيات الحكم في قضية الجهاد ، نقلا عن كمال خالد المحامي ، هؤلاء قتلوا السادات ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

(٢) ينظر القرضاوي ، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٠٨ .

(٣) ينظر سيد قطب ، لماذا أعدموني ص ٩٥ ، والبهنساوي ، الحكم وقضية تكفير المسلم ص ٢١ - ٣٠ ، والقرضاوي ، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٢٥ .

الصحافة والإعلام بشكل عام- بكثير من التهويل والتضخيم والاتهام بلا أدلة بل والاستهزاء بأمور أصيلة من الدين[1].

ج- التضييق على الإسلام وفتح المجال للاتجاه العلماني، فقد صودرت حرية الدعوة إلى الله في بعض ديار المسلمين بينما أفلت العنان في المقابل لدعاة العلمانية والتغريب، وهذه المصادرة لها اثرها الكبير على الدعاة، حيث اندفع بعضهم إلى أضرب من السرية، واتخذوا العنف منهجاً لهم[2].

٤- الفساد والتحلل الأخلاقي، فنتيجة للتيار التغريبي الذي اكتسح ديار المسلمين انتشرت المباذل، وتحلل كثير من الناس من القيم الأخلاقية، وانتشرت الفواحش، ولا يملك الصالحون القدرة على تغيير ذلك ولذلك اندفع البعض الى القول بجاهلية المجتمعات وكفرها.. الى غير ذلك من أضرب الغلو[3].

٥- الأوضاع الاقتصادية؛ اذ كان للضغوط الاجتماعية دورٌ كبيرٌ في تشكيل نفسية الغلاة في العصر الحديث ويمكن التمثيل على بعض الجوانب الإقتصادية السيئة بما يلي:

أ- سوء توزيع الثروات والهوة الكبيرة بين الطبقات، إذ يعيش الشباب في كثير من المجتمعات المسلمة وهم بين متنعم بالحياة، وبين من لا يملك ضرورياتها.

ب- انهيار قيمة العمل، إذ لم يَعُد العمل هو مصدر الثروة، وإنما أصبحت الطرق غير المشروعة هي التي تجلب الثراء ولا شك أن مثل هذه المظاهر تشعر الإنسان بالظلم مما يبذر في نفسه بذور الغلو والإرهاب[4]

---

(١) ينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص ص ٢١٦، ويوسف صديق، حقيقة التطرف الديني ص ٢٥.

(٢) ينظر القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص ١١٩-١٢٥.

(٣) ينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص ص ٢٢١، والتطرف الديني ص ٤، وعبدالرحمن أبو الخير، ذكرياتي مع جماعة المسلمين ص ٧٨

(٤) ينظر عبدالرحمن الشرقاوي، الإرهاب ص ٤٤ - ٤٥ والقرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ١٣١ - ١٣٥.

٦- غياب دور العلماء في كثير من البلدان الإسلامية، ويمكن إجمال الجوانب المتعلقة بغياب دور العلماء فيما يلي:

أ- التخلي عن مهامهم، حيث تخلى جمع من علماء الأمة عن مهمة توجيه الناس وانشغلوا بمهام تستهلك الوقت والجهد، مما فتح المجال لفئات من الجهلة او حديثي العهد بالعلوم الشرعية لتسنم اماكن التوجيه.

ب- انحراف بعض العلماء، باحتراف العلم حيث اتخذوه مهنة ولم يتخذوه رسالة، ولذلك فهم موضع اتهام عند الغلاة إذ يعدونهم دائرين في فلك الحاكم ويبررون له اعماله.

ج- عدم التصدي للقضايا التي طرحها المتهمون بالغلو والتي هي من المعضلات التي اشتبهت على كثير من الناس ومع ذلك لم تبين البيان الذي تبرأ به الذمة[١].

٧- التبعية في العالم الإسلامي وتتمثل في:

أ- التبعية في الاقتصاد والسياسة.

ب- التبعية في التعليم والتوجيه.

ج- التبعية في الأخلاق والسلوك[٢].

٨- التغريب والعلمنه، فمنذ انتهاء الاستعمار العسكري والتغريب يأخذ مجراه في جميع الجوانب في البلاد الإسلامية، وكان لهذا التغريب منظروه الذين وصلوا إلى درجات من الغلوفية كبيرة[٣] وهذا التغريب انتج رد فعل هو الغلو يقول احد الأساتذة المهتمين بالقضية «يبدو لي أن الغلو سيبقى بدرجات شتى وأشكال متنوعة وعلى فترات ممتدة أو متقطعة ما بقيت هيمنة التغريب ولن يضعف إلا بضعفها»[٤]

---

(١) ينظر القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٩٠، وكمال خالد، هؤلاء قتلوا السادات ص ٢٥٩-٢٦١.

(٢) ينظر عبدالرحمن ابو الخير، ذكرياتي مع جماعة المسلمين ص ٩١، والقرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ١٤٥ - ١٥٤

(٣) ينظر طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر ص ٤١ وينظر ما نقله الشيخ مصطفى صبري في، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ج١ ص ٣٦٩

(٤) طارق البشري، سيبقى الغلو ما بقي التغريب ص ٦١

٩- الهزائم السياسية والعسكرية، فلقد تعاقبت على العالم الإسلامي عدة هزائم على الصعيدين العسكري والسياسي كان لها الأثر الكبير في احداث مشكلة الغلو، ولذلك إن جمعاً من الباحثين يرجعون ظهور جماعات الغلو الى ردة الفعل التي حدثت بعد هزيمة ١٣٨٧- ١٩٦٧م[١]

ثانيا : الأوضاع المحلية :

١- التآمر على الدين الإسلامي، فلقد انتقلت الأمة من أمة سيادة تدين لها الأمم بالولاء، وتبسط على الأرض حكم الله عز وجل إلى أمة تابعة يتكالب عليها الأعداء كما تتكالب الأكلة على قصعتها، وترميها الأمم عن قوس واحدة، ويعد هذا التآمر عاملاً موثراً في نفسيات المسلمين وفي نفوس الواقعين في الغلو منهم بشكل خاص[٢].

٢- غلبة الحياة المادية، فقد غلب على العالم اليوم الاتجاه المادي تبعاً للتقدم المدني، وهذا التوجه للأمور الدنيوية غالباً ما يكون على حساب الإلتزام بالدين. وهذا كان له الأثر الكبير في جنوح بعض الناس الى الغلو

٣- سقوط الخلافة، فقد غابت صورة الدولة الاسلامية الواحدة التي تحكم ديار المسلمين، وكان البديل للدولة الاسلامية تجزئة العالم الإسلامي إلى دويلات، وكان لهذا الأمر أثره الكبير في نفوس من وقعوا في الغلو يتضح ذلك من كتاباتهم عن الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية [٣].

---

(١) ينظر القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١١٧، ورجاء العربي، التطرف الديني وأبعاده ص ٢

(٢) ينظر، علي جريشه الاتجاهات الفكريه المعاصرة ص ١١، فتحي يكن، العالم الإسلامي والمكائد الدولية.

(٣) ينظر ماهر بكري، كتاب الهجرة ص ٦